علي الجندي

تجلّيات النخلة !

... ميلي يا نخلة هذا العصر الصاخب ميلي ،
حلي شعرك حليه ..
حوالي هذا الجذع السامق ،
هزي خصرك هذا الواهي النابض ،
هذا البرزخ ـ آنست هنا نارا ومحارا ولآليء !
ميلي حينا نحو البحر وحينا نحو الشجر الجبلي اليابس ..
نحو الشرق ونحو الغرب ونحو القبلة نحو الخوف ،
ونحو الشوق ونحو الموت ..
ميلي ، ميلي فوق الصوت .
آه ميلي ،
قولي
قولي ،
انخي اللحن الفاتر دوري ،
دوري ، دوري حول الوهج الصاعد ،
حول الفكرة حول الدمعة ،
داخ العالم ،
ارض الحزن تدوخ ، تدوخ ،
الكلمة تصعد ، تهبط ، ترقص ، او تترنح حد النوم ،
كوني النوم ، الصحو ، الوسن ، الصحو ، النوم !
كوني الدفء ، الموقد ، شمس الصبح البارد
كوني قمر الصيف الوافد ..
صيري الوهج ، البرد ، الماء ، النار ، الخضرة ..
حب الارض البَين ضباب الرهبة صاعد ..
.. مدي سعفك مديه ..
الى آخر آفاق الصحراء ،
صوب البحر ونحو الجبل العالي ..
نحو القلب البَيداء !
.. هل من ثمر في آخر آخر اغصانك يا فاتنة الرمل
ام ان الجذع وان السعف وان الثمر .. غوايات اوهام لفاء ؟
ام انك رأية خطر تنذر عابدها وتلوّح للعشاق
على البعد ان انعطفوا عن دربي !
ـ درب الهلاك طريقي ، والواحة كاذبة والخضرة ليست غير سراب ! ـ
عودوا ، عودوا ،
ـ كلنا آنسنا نارا وطيوبا وينابيع شراب ،
وسمعنا رغم البعد حداء ..
ـ عودوا ، عودوا يا رواد الوهم ،
النار سراب والخضرة نار رمضاء !
ـ .. لكنك يا نخلة شط العرب تلوحين على البعد
ورائحة ترابك تهدينا ،
شكل جدائلك حقيقي ،
فرعك حق ،
جذعك يرتفع على خوف قوافلنا ،
يتأود في الريح الرملية نحو الشرق ونحو الغرب ونحو القبلة
نحو الشوق ونحو الشمس ،
ـ دوروا ، دوروا ، دوخوا ،
لفوا حولي ، حول ترابي ..
هيا ، رقصا ، هيا .. هيستريا ،
غنوا ،
جنوا ،
شربا ، سكرا ، شبقا ، سبقا .
نارا ، اكلا ، دبكا ...
هيا ، هيا ..
كونوا حولي مثل الحلقة ،
اني ... شبقة !
نار تأكلني ،
نار ترعى كل لحائي ، سعفي ، ثمري ، الاعشاش المدسوسة بين غصوني ..
غنوا ، آه اشعر بالبرد يمازج ناري !
كل جذوري تأكلها الديدان ،
شيء يخترق مجاري نسغي ،
يحفر فيه نفقا ،
ضوء ينفجر هناك فأصبح شيئا شفافا ؟
من منكم يتسلق جذعي ،
من يشلخ غصنا مني لتروا كيف يسيل دمي عرقا ماصل !
من يجرؤ منكم ان يغرز موساه بصدري ،
لتروا كيف دمي اصبح صمغا ، وفؤادي كيف تحول
من جوهرة ـ بعد الصيف ـ الى كتلة فحم حجري ،
.. دوروا حولي في ايقاع خدري ،
ميلوا انتم ،
هزوا الارداف وغنوا ،
دوخوا ، شيخوا ،
وادعوا اللاة ، العزى ، هبلا ، ابليسا ..
هيا ..
صبوا الخمر على ارضي ،
عل النشوة تحيي بعضي !
آه ..
ـ يا ... لو خيمت على الاحزان المثقلة علينا يا نخلة صحراء الصحراء ..
غطي بجدائلك المرخية اوجهنا ،
خبي عورات المحتفلين بنومك ، والمهزومين الملتجئين الى ظلك ..
من هذي الرمضاء !
نحن بنوك العطش ، الفرقى ، الخوفى ..
نحن الموتى ، الموتى ، الموتى ...
ابناء الموتى الاحياء !
آباء الموتى الفرقى في الطين !

اخوان الموتى المهزومين ..
آنسنا عندك نارا ودخانا ،
دفئا ، موتا ، موتا ، موتا ..
آوينا يا أم الفقراء المحرومين ،
نملأ قفر فراغك حزنا وبكاء وغناء ،
نغسل جذعك ، كل غصونك بالزيت الاسود ،
نجعل يومك ، ليلك احفل بالصخب المحزون !
ونصلي حولك ، ندعو السياح ونحفر فوق غصونك
صورا لطلول جمالك ،
ننشدها شعرا وضاء !
نامي ان كنت تعبت من الرقص المجنون ،
وسنحرس نومك ، نحفر حولك حتى بأظافرنا خندق!
نجري فيه الزيت ،
فنحصنه بالموت !
ونقيم عليه اعمدة الهيكل ، اسلاك الخوف الشائكة..
المسمومة ،
ونكهرب رملك ، نبني كعبة ايام رقطاء !
نصنع حولك عقدا عظميا مرصوفا بجماجم اخوتنا ـ
الاعداء !
لكن ،
ظلي ميلي ،
ميلـي ،
ميلي ..
دوري ، دوخي ـ دخنا ـ شيخي ، جني ..
مدي ظلك حتى آخر آفاق الصحراء !!
افضي بحديث جدائلك الحمراء
للريح وللرمل وللزوبعة الشمطاء ..
... انا بالرغم من الرهبة وجلال الاسماء
نحتاج لموسيقا عاهرة وصنوج ودفوف ،
و .. طبول جوفاء !
نحتاج لهزة ردف ،
رجفة خصر ،
بسمة ثغر ،
نوم ، سكر ،
يقظة موتى ،
صرعة حب ،
جسد ،
صوت ،
هيستريا ...
ذكرى تحزننا او تفرحنا او تشعل فينا النار ،
النار ، النار ، النار !
« يا ليلى البدوية ، يا قيثارة ليل الغرباء ..
وبوق الضعفاء ، وصمت الثار
يا صبارة حزن يتوهج من غرناطة حتى مكه ..،
جئناك من النار الموتورة صرعى اللهب الفاتك ،
جئنا ، جئنا مهزومين !
جئنا نطلب بعض البركة !
ـ من يعطي الخائف والخانع والمهزوم الاوسمة ...
يزوج للعبد المخصي الملكة ؟! ـ
.. آوينا يا غجرية هذا الليل القمري الصحراوي
فانا منبوذون ومهزومون ومتروكون بلا مأوى !
واسينا يا بهكنة الصحراء المسكية ،
هذا زمن الشكوى ! »
... وجهك نور ، خصرك نار ، صدرك طيب ،
نحرك مرآة وصليب ،
وجدائلك الخضر الطيب ..
هزي جذعك ، حلي شعرك ، ميلي ، ميلي ..
هزي ردفك ، دخنا ، دوخي ، جني ، غني .
رقصك ، حزنك .. وجهك ياما ..
اغوى آلهة النيران ،
آن الآن ،
آن الآن ،
هذا زمن يصهل فيه الموت فينهب ارض التيه الاول:
فوق السرج الزمن الذابل ،
قرب الفرة رمز الخوف ..،
هذا ، هذا فصل الصيف ،
نرحل فيه اليك حيارى ،
ثم نحج ونبكي ، نندب .. آه
يا قبرة الشجر الميت آه !
آه يا جارية تعرف كيف الغابة تعرى ،
تفقـد تحت الشمس العفة ، كيف الرمـل يصير
دثارا ..
كيف الشجر يداري العورة ،
كيف الرمل يصير غبارا !
.. داري يا نخلتنا الاولى ،
داري العار ،
آه دوري ، دوري ، ميلي
نحن السمار الاحرار !
نحن الكهان الابرار
نحن ... الغار !
نحن البشرى ..
وسراويلات نساء الحي تضم النار !
من هذي الضفة اشعار
من تلك الضفة يولد فجر البرق ، وتطلـع شمس
حمراء
فتثير الريح .. توجّ النار
يولد بين الريح وبين الاوجه والمرآة ،
وبين الرمل وزيت الاعماق ، وصوت البحر الآتي
في الريح ... حوار :
ومن الرقص المجنون ،
الدوران المذهول ،
الموت المأهول ،
الخوف المعتوه .. سينفجر الاعصار ..
فانتصبي يا نخلة في قلب الموت المترامي ،
وانتفضي ،
مدي أجنحة السعف الذابل نحو البحر ونحو الفجر،
وفوق الصمت ..
وميلي ، ميلي مثل الجثية في الافق الثرثار ،
تصدح موسيقى الاشعار ،
يطلع من قلب الظلمات ... نهار ...

دمشق